

محاضرة

حبل الله الممدود - القرآن العظيم -

فضيلة الشيخ عبد الرزاق البدر

حفظه الله تعالى

النسخة الإلكترونية (٢)

الشيخ لم يراجع التفريع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته...

إنَّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهديه الله فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أنَّ محمدًا عبده ورسوله صَلَّى الله وسلَّم عليه وعلى آله وصحبه أجمعين .

أمَّا بعد؛ فهذه أمسية طيِّبة وساعة كريمة في هذه الليلة الفاضلة من ليال شهر رمضان المبارك، مع موضوع جليل القدر، عظيم الفائدة، كبير النفع، له صلةٌ بشهرنا الكريم وموسمنا الفاضل، وعنوانُ هذا اللقاء:

حبل الله الممدود

وقبل الدُّخول في موضوع هذه المحاضرة أقدر وأشكر للإخوة الكرام القائمين على واحة الإيمان في القصباء، جهدهم المبارك وسعيهم المشكور وكريم رغبتهم في أن أشارك في هذا اللقاء وهذا البرنامج الذي في ما نسمع ونعلم تُبذل فيه جهود كبيرة لاستثمار وقت هذا الشهر ولياليه المباركة في علمٍ نافع وفوائد عظيمة تعود على النَّاس بالخير والفائدة.

ويطيبُ لي كذلك أن أشكر صاحب السُّمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي حاكم الشارقة على رعايته الكريمة لهذه الواحة الإيمانية الطيِّبة النَّافعة، وكذلك دعم دائرة الشؤون الإسلامية في الشارقة ممثلة برئيسها الشيخ صقر بن محمد القاسمي، وأيضًا أشكر الشيخ الأستاذ مروان السركال وإخوانه في قناة القصباء، وأشكر أيضًا إخواني الحضور حضورهم، وأسأل الله ﷻ أن يمدنا جميعًا بالعلم النَّافع والتوفيق لما يحبه ويرضاه من سديد الأقوال وصالح الأعمال .

موضوع هذا اللقاء -أيُّها الإخوة الكرام- حبل الله الممدود، وهذا العنوان من اختيار الإخوة القائمين على هذه الواحة الإيمانية، وأعظم ما يكون في واحة الإيمان تغذيةً لها، ومدًا لثمارها وفروعها وآثارها كتاب الله الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيلٌ من حكيم حميد، وحبل الله الممدود الذي هو عنوان هذه المحاضرة هو كتابُ الله -جلَّ وعلا- القرآن الكريم، وقد جاء تسميته بهذا الاسم في السُّنَّة الصَّحيحة الثَّابتة عن رسول الله ﷺ فقد روى الإمام أحمد في «مسنده» من

حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « كتاب الله هو حبلى الله الممدود من السماء إلى الأرض »، وروى الإمام مسلم في « صحيحه » من حديث زيد بن أرقم أن النبي ﷺ قال : « ألا وإني تارك فيكم ثقلين : أحدهما كتاب الله ﻋَزَّ وَجَلَّ وهو حبلى الله المتين، من أتبعه كان على الهدى، ومن تركه كان على الضلالة ».

وروى ابن أبي شيبة في « مصنفه » بإسناد على شرط مسلم من حديث أبي شريح الخزاعي رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « أبشروا أبشروا.. أليس تشهدون أن لا إله إلا الله وأني رسول الله؟ »، قالوا : نعم، قال : « فإن هذا القرآن سبب - أي حبلى - طرفه بيد الله وطرفه بأيديكم، فتمسكوا به فإنكم لن تضلوا ولن تهلكوا بعده أبداً ».

معاشر الإخوة الكرام، يأتي هذا الموضوع العظيم بهذا العنوان (حبلى الله الممدود) في هذه الأيام المباركات أو الليالي المباركات ليال شهر رمضان المبارك، وكلنا نعلم أن شهر رمضان له خصوصية بالقرآن الكريم، يقول الله - جلّ وعلا - : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ ﴾ [البقرة: ١٨٥]، ويقول - جلّ وعلا - : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبْرَكَةٍ ﴾ [الدخان: ٣]، ويقول - جلّ وعلا - : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ ① وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ② لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ③ [القدر]، فالقرآن الكريم أنزل في شهر رمضان وهو أعظم كتاب أنزله الله ﻋَزَّ وَجَلَّ على أعظم رسول في أفضل شهر وفي أفضل ليلة، فليلة القدر هي خير ليالي السنة على الإطلاق وهي الليلة التي أنزل فيها القرآن، والمراد بإنزاله أي إلى بيت العزة في السماء الدنيا ؛ لأن القرآن نزل جملة واحدة في ليلة القدر إلى بيت العزة ثم نزل منجماً خلال عشرين سنة بحسب الأمور والأحوال والوقائع والحوادث ونحو ذلك، كما جاء بذلك الأثر عن ابن عباس رضي الله عنهما وعن غيره في تقرير هذا المعنى.

وهذا يبين لنا أن شهر رمضان المبارك له خصوصية في القرآن، ولهذا كان جبريل يأتي نبينا ﷺ في هذا الشهر ويدارسه القرآن، وقد جاء في الحديث الصحيح أن النبي ﷺ كان أجود الناس وكان أجود ما يكون في رمضان حينما يأتيه جبريل يدارسه القرآن، ولهذا أيضاً كانت عناية السلف بالقرآن تعظم في هذا الشهر - شهر القرآن - وموسم القرآن، وكانوا يتنافسون على ختم كتاب الله ﻋَزَّ وَجَلَّ في هذا الشهر الفاضل مرات عديدة مع التدبر لآياته، والتأمل في دلالاته، ومجاهدة النفس على العمل بهذا الكتاب العظيم؛ كتاب الله جلّ وعلا.

والقرآن - أيُّها الإخوة الكرام - كتابٌ أنزله الله - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - هداية للبشرية، وصلاًحاً للنَّاسِ، وذكرى للمؤمنين، وشفاء لما في الصُّدُور، وضياء ونوراً وبركة لمن كان من أهله، قال الله تعالى: ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبْرَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩]، وقال - جل وعلا - : ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٩].

وهذا الكتاب العظيم أنزله الله - تبارك وتعالى - لعباده ليكون منهجاً لهم في حياتهم، في أخلاقهم، في آدابهم، في معاملاتهم، في تعبدهم وتقربهم إلى الله ﷻ، ولهذا لما سُئِلَت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عن خلق نبيِّنا ﷺ قالت : (كان خُلِقَ القرآن)، ومعنى كلامها - رضي الله عنها وأرضاها - (كان خلقه القرآن) أي أن كل ما تراه في القرآن من عبادةٍ وخلقٍ وأدبٍ ومعاملةٍ إلى غير ذلك، كلٌّ ذلكم اتَّصف به نبيُّنا - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - على التَّمام والكمال، فكان أعبد النَّاسِ لله، وأكثرهم لله خشية، وأعظمهم تقوى لله ﷻ، وأكملهم خلقاً، وأحسنهم أدباً، وأطيبهم معاملة، وكلُّ ما في كتاب الله ﷻ من عبادةٍ وخلقٍ وأدبٍ وغير ذلك أتى به وتممه وكمله صلوات الله وسلامه عليه .

وهذا القرآن هو زاد المؤمنين، وروح قلوبهم، وغذاء نفوسهم؛ بل إن حياة الإنسان الحقيقية لا تكون إلا بالقرآن الكريم، لا يحيى العبد حياةً حقيقية إلا بهذا الكتاب العظيم، الكتاب المبارك، ولهذا سَمَّى الله - جلَّ وعلا - كتابه روحاً في غير ما آية؛ قال سبحانه: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]، وقال - جلَّ وعلا - في أوائل سورة «النحل»، سورة النعم كما يسميها بذلك أهل العلم؛ لكثرة ما عدد الله فيها من نعمه، بدأ الله سورة النعم بقوله : ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [١] يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ ﷻ، سَمَّى رَبُّنَا - جلَّ وعلا - وحيه الحكيم وذكره العظيم والقرآن الكريم، سمَّاه روحاً، لماذا؟ لأنَّ حياة القلوب الحقيقية إنما تكون بهذا القرآن؛ بل سَمَّى جبريل عليه السلام الذي ينزل بالوحي سمي أيضاً الروح، نزل به الرُّوح الأمين ﴿نَزَّلَ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ﴾ أي جبريل ﴿فِيهَا﴾ [القدر]، سمَّاه روحاً؛ لأنَّه نزل بالقرآن الذي به حياة القلوب، ويجب على كلِّ واحد منا أن يعلم أن حياته الحقيقية في هذه الدنيا وفي الآخرة بحسب حفظه ونصيبيهِ من هذا الكتاب المبارك علماً وعملاً وتطبيقاً.

ولهذا يقول الله جلّ وعلا في سورة «الحديد»: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١٦﴾ أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾، تأمل أخي -رعاك الله- قول الله عز وجل: ﴿أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ ذكر هذا سبحانه عقب قوله: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ أتبع هذا بإخباره ﷺ أنه يحيي الأرض بعد موتها قال: إنَّ في ذلك لآيات لعلكم تعقلون، فيها آيات عظيمة، آيات جليلة؛ أي كما أن الأرض الميتة تحيا بالماء إذا أنزل الله عليها الماء اهتزت وربت وأنزلت من كل زوج بهيج، فكذلك القلوب لا يمكن أن تحيى إلا بالقرآن، لا يمكن أن تدبَّ فيها الحياة وأن تذوق طعم الحياة وأن تتلذذ بسعادة الدنيا والآخرة إلا بهذا القرآن، وبدون القرآن والعمل به يعيش الإنسان في هذه الحياة عيشةً بهيمية ليست عيشة حقيقية، ولهذا يقول الله: ﴿فَأَمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مَتَى هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَاى فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴿١٣﴾﴾ [طه]، نفي الضلال فيه إثبات الهداية، ونفي الشقاء فيه إثبات السعادة، فمن أراد لنفسه هدايةً وسعادةً فعليه بالقرآن، ويقول جلّ وعلا: ﴿طه ﴿١﴾ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿٢﴾﴾ [طه]، أي: إنّما أنزلناه عليك لتسعد، وقد قيل في بعض كتب التفسير أن جماعة من المشركين قالوا في حق نبيِّنا ﷺ وأصحابه، قالوا: إنّ الله أنزل عليه هذا القرآن ليشقى به هو وأصحابه، فقال الله: ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿٢﴾﴾، أي: إنّما أنزلنا عليك القرآن لتسعد، ولهذا السعادة الحقيقية وهناءة العيش وذوق واحة الإيمان وحلاوة الدين إنّما يكون ذلك بالقرآن الكريم كتاب ربنا ﷺ.

ولهذا جاء في القرآن آيات عديدة فيها أمر الله سبحانه عباده بتدبر هذا القرآن حتى يذوقوا حلاوته؛ لأنه لا يذوق حلاوة القرآن ولا يتنفع به إلا من تدبر آياته، وعقل مضامينه، وفهم معانيه، ولهذا يقول إمام المفسرين وشيخ المفسرين الإمام الطبري رحمه الله يقول كلام معناه: كيف يذوقوا حلاوة القرآن من لا يفهم معناه!

ولهذا جاء في القرآن آيات كثيرة فيها الأمر بتدبر القرآن الكريم، يقول الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء]، ويقول جلّ وعلا: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾﴾ [محمد]، ويقول جلّ وعلا: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص]، وأخبر ﷺ أن سبب ضلال من ضلّ وهلاك من هلك وضياع من ضاع؛ البعد عن القرآن وعن تدبره، وبين الله ﷻ أن هؤلاء وأمثالهم لو تدبروا القرآن لوجدوا فيه شفاء الصدور وصلاح

القلوب وسعادة الدنيا والآخرة، قال الله تعالى: ﴿فَكَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنْكَبُونَ﴾ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سِمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَلَمْ يَذَرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [المؤمنون]، قال: ﴿أَفَلَمْ يَذَرُوا الْقَوْلَ﴾ ! أي لو أنهم تدبروا القول وعقلوا معناه وفهموا دلالاته لما حصل لهم هذا النكوص على الأعقاب، ولما حصل لهم هذا الضلال والضَّياع والفساد!! وهذا يدلُّنا دلالة بينة أن ضياع الإنسان وفساده وضياعه وانحرافه وزيفه بحسب بعده عن هذا الكتاب العظيم وهذه الواحة الإيمانية المباركة التي فيها سعادة العبد في دنياه وآخره.

وقد سمَّى الله ﷻ القرآن الكريم في مواضع عديدة، سماه ذكرى، ﴿قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾ ﴿١٠﴾﴾ [الطلاق]، ﴿وَالْقُرْآنَ ذِي الذِّكْرِ﴾ ﴿١﴾﴾ [ص]، سمَّاه بهذا الاسم لماذا؟ لأنَّ القرآن فيه ذكر خبر من قبلنا، ونبأ ما بعدنا، فيه ذكر أسماء ربنا ﷻ وأوصافه، فيه ذكر الجنة والنار، فيه ذكر الأحكام والأوامر والنواهي، فيه ذكر القلوب، فيه ذكر ما فيه فلاح العبد وصلاحه في دنياه وآخره، وإذا كان القرآن سمَّاه ربنا - جلَّ وعلا- في مواضع عديدة (ذكرى) فإنَّ من ابتعد عن القرآن الكريم كان من الغافلين! ولا يكون العبد بعيداً عن الغفلة سالمًا منها إلا إذا كان له حظٌّ ونصيبٌ من هذا الكتاب المبارك الذي فيه حياة القلوب وذكر العالمين وفلاحهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة.

وقد وصف الله ﷻ هذا القرآن بأنَّه لو أنزله الله على جبل لتصدَّع، قال الله تعالى: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَاهُ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خَشَعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١] الجبل الأصم لو أنزل عليه هذا القرآن لتصدَّع من خشية الله، ثم تكون كثيرٌ من القلوب، تلك المُضغطة الصغيرة تكون أقسى عيادًا بالله -تبارك وتعالى- من الجبل، تردُّ عليها زواجر القرآن وقوارع القرآن ومواعظ القرآن وتذكير القرآن ولا يتحرَّك فيها ساكنًا؛ بل تبقى على قسوتها فهي كالحجارة أو أشدَّ قسوة - عيادًا بالله -، ولهذا ذكر القلوب ويقظة النفوس وصلاحها إنما يكون بارتباط العبد بهذا القرآن عندما يكون القرآن ربيعًا للقلب يحيا معه العبد حياة جميلة حياة هنيئة حياة سعيدة، وفي الدُّعاء المأثور دعاء طرد الهم والغم المأثور عن نبينا -عليه الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- قال: «أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحدًا من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك» أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي ونور صدري وجلاء حزني وذهاب همي وغمي»، وتأمل أخي وفَّقك الله هذه المعاني التي هي ثمار القرآن وآثاره، قال: «أن تجعل القرآن ربيع قلبي ونور صدري»، لما ذكر القلب قال: «ربيع قلبي» ولما ذكر الصدر: قال «نور

صدري»؛ لأنَّ الصَّدر محيط بالقلب فإذا أضاء الصدر انعكس ضيائه على كل ما في داخله، ولما ذكر القلب ذكر الربيع ؛ لأن القلب هو منبع الفضائل عندما يوفق للصالح والزكاة، «ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»، وهذا فيه إشارة لطيفة إلى أن القلب عندما يصلح بالقرآن يكون ربيعاً، والربيع يثمر أطيب الثمر وأجمل الزهور وأحسن الورود وأبهى الروائح يصبح ربيعاً، قال: «وأن تجعل القرآن ربيع قلبي ونور صدري وجلاء حزني»، وهذه فائدة عظيمة من فوائد القرآن أن جلاء ما يكون في القلب من أحزان وآلام وهموم وغموم، إنما يكون بهذا الكتاب العظيم، الذي هو في الحقيقة كتاب السَّعادة: ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ [طه]، ولا يمكن أن تسعد بالقرآن بمجرد وضعه مزخرفاً في رفٍّ في البيت أو في موضع جميل، لا يمكن أن يذوق الإنسان السَّعادة التي تُستمد من هذا الكتاب بهذا، ولا يمكن أن يذوقها بمجرد هذه قراءته بدون تدبر ولا تعقل ولا تفهم ولا عمل بهذا الكتاب؛ بل سعادة القرآن وحلاوة القرآن وهناءة العيش المحصلة بالقرآن الكريم إنما تكون بتدبر القرآن وتعقل معانيه والعمل بما فيه.

ولهذا قال غير واحد من أهل العلم في معنى قوله ﷺ: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [البقرة: ١٢١]، متى يكون العبد تالياً لهذا القرآن حقَّ التلاوة ؟ قالوا بثلاثة أمور:

الأمر الأول: قراءة القرآن و حسن ترتيله وحفظ ما تيسر منه.

الأمر الثاني: التدبر وفهم الخطاب، ﴿كَتَبْنَا أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبْرَكٌ لِّدَّبَرُواْ ءَايَاتِهِ﴾ [ص: ٢٩]، ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾ [المؤمنون: ٦٨]، ﴿أَفَلَا يَتَدَّبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ [محمد: ٢٤]، ويكون همه وهو يتلوا القرآن ليس متى أختتم السورة ؟ متى أنتهي من التلاوة ؟

وإنما يكون همه وهو يتلوا القرآن متى أعقل عن الله الخطاب ؟ متى أفهم كلام الله ؟ متى يتأثر قلبي بالقرآن ؟ متى أعمل في القرآن ؟ متى أكون من الصادقين الموصوفين بذلك في القرآن ؟ من التوايين، من المنيين، من الذاكرين، من المصلين، من القانتين، من المتصدقين.. إلى آخره متى أكون كذلك ؟ يقرأ وهو يجاهد نفسه على هذه المعاني، لا يكون همه وهو يقرأ متى أختتم ! بل يكون همه وهو يقرأ متى أعقل، متى أفهم، متى أتأثر بالقرآن الكريم؟، ولهذا قال ابن القيم رحمه الله في بعض كتبه: قراءة آية بتدبر خير من ختمه بدون تدبر، آية واحدة تقرأها وتدبرها وتداوي بها نفسك وتتأمل في معانيها.

ولهذا كان بعض السلف يقوم الليل في آية واحدة، نبينا -عليه الصلاة والسلام- قام ليلة بآية

واحدة، وجاء في الصحيح أنه ذكر له رجل قام ليلة بـ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص]، وكان السائل الذي يخبر النبي ﷺ يتقال ذلك، فقال النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده، إنها لتعدل ثلث القرآن».

فعندما يتدبر الإنسان ويتأمل ولو آية واحدة تعيش معها ليلة تداوي بها نفسك، تعالج بها مرض قلبك، تقوي بها إيمانك، تقوي بها توكلك، تقوي بها صدقك مع الله، صلتك بالله - تبارك وتعالى - خير لك من أن تمضي هذا بدون عقل وبدون فهم.

فالأمر الثاني التدبر.

والأمر الثالث: العمل بالقرآن الكريم .

قال الحسن البصري رَحِمَهُ اللهُ تعالى: (أُنزل هذا القرآن ليُعمل به، فاتَّخذ الناس قراءته عملاً)، الذي أنزل لأجل القرآن أن نعمل به، أن نكون من أهل القرآن، ولا يمكن أن يكون العبد من أهل القرآن بمجرد حفظ حروفه أو تلاوة آياته وسورة فقط، بل لابد من الفهم للمعاني، ولابد من العمل بهذا الكتاب العظيم، وقد تحدث الإمام الحسن البصري رَحِمَهُ اللهُ عن بعض قراء زمانه وأنتم تعلمون أن الحسن البصري رَحِمَهُ اللهُ تعالى من كبار العلماء التابعين من أهل القرن الذي يلي قرن الصحابة، فكان يتحدث عن جماعة من القراء في زمانه، يقول: (يقول أحدهم: قرأت القرآن كله ولم أسقط منه حرفاً) مقصوده ضبطه للتلاوة، للمخارج، للترتيل، إتقان الحفظ لا يسقط منه حرفاً (يقول أحدهم قرأت القرآن كله ولم أسقط منه حرفاً، وقد أسقطه والله كله لا يرى عليه القرآن لا في خلق ولا عمل) ثم قال الحسن: (إذا كانت القراء مثل هذا لا كثر الله في الناس مثل هؤلاء، ما هؤلاء بالقراء ولا العلماء ولا الورعة، لو كانت القراء مثل هؤلاء لا كثر الله في الناس مثل هؤلاء).

ليست تلاوة القرآن بمجرد القراءة أو الحفظ لحروفه؛ بل لابد من التدبر ولا بد أيضاً من العمل، والعمل بالقرآن يسمي تلاوة، العمل بالقرآن الكريم يسمي تلاوة من تلاوة القرآن أن تعمل، إذا صلينا صلاتنا هذه تلاوة للقرآن، إذا صُمنّا صيامنا هذا تلاوة للقرآن، إذا تصدقنا إلى غير ذلك من الأعمال هذا يعد تلاوة للقرآن، تلاوة للقرآن بمعنى اتباع وعمل والله ﷻ يقول في القرآن: ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَّهَا﴾ [الشمس]، يعني تبعها، الاتباع من معاني التلاوة، فاتباع القرآن يعد تلاوة للقرآن، والقرآن إنما أنزل لأجل ذلك، لأن يعمل به العبد، تقرأ القرآن تمر بك أوصال وتمر بك أوامر وتمر بك نواهي وتمر بك زواجر وتمر بك قوارع وتمر بك مواضع وتمر بك تذكيرات وتمر بك مصائر ما حظك منها؟؟ وما

تنصيبك منها؟؟ أوامر الله في القرآن التي تقرأها وتمر عليها وتتلوها ما حظك منها؟ نواهيه - جل وعلا -
ما نصيبك منها؟ وما حظك منها؟

يقول ابن مسعود رضي الله عنه: (إذا سمعت الله يقول ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ فارعها سمعك؛ فإنه إمّا خير تؤمر به، أو شر تُنهى عنه).

أمّا إذا كنت لا ترعها سمعك وتمر وكأن الأمر لا يعينك، وكأن الخطاب لغيرك متى يستفيد الإنسان للقرآن؟ ومتى يكون للقرآن الأثر عليه؟

ولهذا يحتاج من هذا المقام من العبد إلى مجاهدة لنفسه على تحقيق هذه المعاني الثلاثة لتلاوة القرآن الكريم، بحسن القراءة والحفظ والتلاوة للقرآن وبحسن التأمل والتدبر والفهم لمعاني القرآن وبالعامل بالقرآن الكريم، وقد مر معنا قول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها لما سألت عن خلق نبينا صلى الله عليه وسلم قالت: (كان خلقه القرآن).

ثم إن هذا القرآن وصفه الله صلى الله عليه وسلم بأنه شفاء لما في الصدور: ﴿وَنَزَّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢]، ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾ [فصلت: ٤٤]، ويقول جل وعلا: ﴿وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾ [يونس: ٥٧].

القرآن شفاء؛ يقول قتادة رضي الله عنه: (هذا القرآن فيه ذكر الداء وذكر الدواء، أمّا الداء فالذنوب، وأمّا الدواء الاستغفار).

القرآن شفاء لكن متى يحصل الاستشفاء بالقرآن؟ متى يتحقق لك التداوي فعلا بالقرآن؟ متى تكون تداوي قلبك بالقرآن؟ الأمراض التي تكتنف القلوب وتُسقم الصدور وترهق القلوب وتؤدي النفوس متى يتخلص منها العبد؟ وكيف يستشفى من هذه الأمراض بكتاب الله صلى الله عليه وسلم؟

والأمراض التي تُصيب القلب كثيرة، لكنها ترجع إلى نوعين: مرض الشهوة، ومرض الشبهة، أمراض الشهوات وأمراض الشبهات، ودواء المرضين الناجع والبلسم الشافي لهما في القرآن الكريم.

القرآن الكريم فيه مداواة القلوب شفاء لما في الصدور، لكن متى يُشفى القلب من أمراضه وأسقامه؟ وكيف يتحقق للعبد التداوي بهذا القرآن العظيم؟ وهل يمكن أن يتحقق للقلب شفاء بالقرآن وواقع القرآن مع الإنسان أنه لا يُجاوز تراقيه، يتحرك به لسانه فقط أما قلبه فمحروم منه؟ لا يمكن؛ بل لا بد أن يصل القرآن إلى القلب، لا بد أن يتحرك القلب مع آيات القرآن مع معاني القرآن مع دلالات القرآن مع

مضامين القرآن، مع مواضع القرآن، مع تذكيرات القرآن، لابد أن يتحرك القلب بذلك حتى تتحرك فيه الحياة، وحتى تزول عنه الأمراض، وحتى تزول عنه الأسقام، ولهذا قَدِّمْتُ لو كان في الإنسان مثلاً مرضاً في قلبه، أحياناً يشتكي بعض الناس من يخاف أو هام، ويقول: أنا في الليل أفزع، أو أنا كذا، أو إذا مشيت في كذا أخاف من كل شيء، أخاف من كذا، أتوقع تجد قلبه فيه مخاوف غير طبيعية، أو هام يعيش معها، ووساوس تُعلِّق قلبه وتمرضه، مثل هذا يناسب أن يداوي نفسه ويتأمل ولو آية واحدة في مشكلته في مرضه يداوي نفسه بهذه الآية، مثلاً يقرأ قول الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾، فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عمران]، يكرّر الآية حتى يمتلئ قلبه خوفاً من الله ويذهب عن قلبه المخاوف التي يلقيها ويزرعها الشيطان في قلبه، إذا وجد من نفسه الضعف في التوكل على الله، يردد ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣]، ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]، إذا وجد في نفسه ضعفاً في إيمانه يردد آيات يداوي بها نفسه ويحاول أن تصل هذه الآيات في قلبه وأن تتمكن، والآية إذا وصلت القلب حصل الشفاء، الآية إذا وصلت القلب وتمكنت منه حصل الشفاء تحقق الثواب بإذن الله - تبارك وتعالى - ولهذا خُلِقَ كثير لا يحصيهم إلا رب العالمين ﷻ زالت أمراضهم وشفيت أسقامهم، بعضهم بآية واحدة سمعها وزلت منه مرضه، أحياناً يكون مرضه الكفر بالله ﷻ فيتحوّل إلى إسلام، أحياناً يكون مرضه النفاق فيتحوّل إلى الإيمان، أحياناً يكون مرضه الفسق والفجور والمعاصي والآثام فيتحوّل إلى استقامة وهداية وصلاح وعبادة لله تبارك وتعالى.

والقصص في هذا كثيرة جداً كثيرة جداً كثير من الناس تتحدث أن هدايته بسبب آية تجد سمعها وأخذ يردّها يعجلها في نفسه تتكرر في قلبه، حتى جعل الله ﷻ فيها هدايته وصلاحه.

الفضيل بن عياض من أئمة التابعين، أمضى أربعين سنة من حياته وهو معدود في كبار المجرمين معدود في كبار المجرمين، كان قاطع طريق، وكانت القافلة بكاملها تخافه إلى أن بلغ الأربعين، وليلة من الليالي أتى إلى البيت، كما ذكر في ترجمته في «سير أعلام النبلاء» وغيره، أتى إلى بيته يتسور البيت على عادة في أجرامه وعدوانه يتسور البيت وهو يتسور البيت، إذا بصاحب البيت كان يقرأ القرآن في سورة الحديد وصل إلى قول الله ﷻ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦]، سمع الفضيل هذه الآية ودخلت قلبه، وتأثر من لحظته تأثراً عظيماً، وقال في ساعته: "بلى"، أجاب ﴿أَلَمْ يَأْنِ﴾ قال: بلى

جاء الوقت التي تخشع القلوب لذكر الله ونزل وعاهد نفسه أن يهاجر إلى مكة وأن يبقى فيها عابداً لله فيها إلى أن يموت، وذهب إلى مكة، آية واحدة حولت مساره إلى أجرام إلى عابد من العباد وصالح من الصالحين ومن المساعدين، وبدأ يرتب وذهب إلى مكة وبقي فيها عابداً إلى أن توفاه الله ﷻ، وفي مكة يأتي العلماء والمحدثون ويتلقى عنهم العلم ويأخذ عنهم الفقه ويحفظ منهم الأحاديث، ولا تفتح الآن كتاب من كتب التفسير أو كتاب من كتب الفقه أو حديث أو غيرها إلا وتجد النقول العظيمة عن هذا الإمام، قال الإمام الفضيل رحمه الله آية واحدة غيرت حياته.

ولهذا أن ينبغي عن الإنسان أن يتفكر في أمراضه في أسقامه في مشاكله، ويبدأ يداوي نفسه بالقرآن، مثلاً يكون الإنسان مبتلي بعض الناس يشتكي من أنه نضره يزيق، نفسه تتطلع للنظر للنساء، وربما يقصد أماكن فيها نساء للنظر وهو مبتلي بذلك، وتتحرك في أمور هو في صراع نفسه في الخلاص داوي نفسه بالآية ﴿قُلِ الْمُؤْمِنِينَ يَعْضُوا مِنْ أَبْصَرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [النور]، يكررها الإنسان ويتأمل فيها ويحاول أن تصل إلى قلبه إذا وصل إلى قلبه حصل الشفاء، المشاكل كلها تأتي بسبب عدم وصول القرآن للقلب، إذا وصل القرآن للقلب حصل الشفاء؛ فيبدأ يجاهد نفسه حتى يصل القرآن إلى قلبه، ويتفقد نفسه في أخطائه في مخالفاته، إذا كان متهاوناً في الصلاة مقصراً يقرأ آيات تذكره بمكانة الصلاة بمنزلتها يرددها ويسأل ربه - تبارك وتعالى - أن يجعله من أهلها، وبهذه الطريقة يحيا قلبه - بإذن الله - بهذا الكتاب العظيم كلام رب العالمين.

فهذه طريقة نافعة عظيمة جداً بالمدواة بالقرآن ولعل كل واحد منا يستعين بالله تبارك وتعالى ويبدأ بذلك مع نفسه، إذا كان الإنسان في عقوق لوالديه إذا كان العقوق لوالديه وتقصير في حقهما يقرأ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا نَهْرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [الإسراء].

لا يقرأها ويمضي وكأن الأمر لا يعنيه يقف، إذا كان عنده تقصير يقف، ويتأمل ويتدبر، ويستعين بكتب التفسير، كلام أهل العلم وإذا وصلت الآية للقلب حصل الشفاء، إذ وصلت للقلب وتمكنت من القلب حصل الشفاء بإذن الله - تبارك وتعالى - هذه معنى قول الله ﷻ وشفاء لما في الصدور أما مجرد التلاوة والهد وعدم التدبير وعدم التعقل لكلام الله ولمعاني القرآن الكريم، فهذا لا يتحقق به

الفائدة المرجوة والثمرة المطلوبة التي ينبغي أن يغفر بها العبد مع هذا الكتاب العظيم المبارك كتاب الله ﷻ.

الكلام عن القرآن وفضله وثماره وأثاره، وأيضا الآداب التي ينبغي أن يكون عليها العبد المؤمن، الحديث في هذا واسع وأنا تأخرت عليكم بالمجيء؛ بسبب الرحلة ونعتذر حقيقة أشد الاعتذار من الأخوة القائمين على الواحة ومن الأخوة الحضور يعني أمرا ليس باليد؛ لكن قدر الله ﷻ وما شاء فعل، وكثرة الكلام يُنسي آخره أوله، فلعل في هذا الكلام الذي سمعناه خير لنا ونفع وفائدة بإذن ربنا تبارك وتعالى.

وأسأل الله الكريم رب العرش العظيم بأسمائه الحسنی وصفاته العليا وبأنه الله الذي لا إله إلا هو أن يجعل القرآن الكريم ربيع قلوبنا، ونور صدورنا، وجلاء أحزاننا وذهاب همومنا وغمومنا، وأن يجعلنا جميعا من أهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصته، وأن ينفعنا بالقرآن، وأن يجعل القرآن حجة لنا لا علينا، وأن يوفقنا لتدبره على الوجه الذي يرضيه وللعمل به، وأن يجعلنا من أهل السعادة من أهل الغنيمة من أهل الفوز في الدنيا والآخرة، وأسأله - جل وعلا - أن يصلح لنا جميع ديننا الذي وعصمة أمرنا، وأن يصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا، وأن يصلح لنا آخرتنا التي فيها معادنا، وأن يجعل الحياة زيادة لنا في كل خير والموت راحة لنا من كل شر، وأسأله - جل وعلا - أن يصلح ذات بيننا، وأن يؤلف بين قلوبنا وأن يهدينا سبيل السلام، وأن يخرجنا من الظلمات إلى النور وأن يبارك لنا في أسماعنا وأبصارنا وأزواجنا وذرياتنا وأموالنا وأوقاتنا، وأن يجعلنا مباركين أينما كنا.

وأسأله - جل وعلا - أن يجعلنا جميعا من عتقائه من النار في هذا الشهر الفضيل فإن الله ﷻ عتقنا من النار وذلك في كل ليلة من ليالي رمضان، اللهم أصلح لنا شأننا كله واغفر لنا ولوالدينا ولمشايعنا وللمسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات إنك أنت الغفور الرحيم. والله تعالى أعلم، وصلى الله وسلم وبارك وأنعم على عبده ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

